

نحو أمن فكري للمجتمعات الإسلامية [المجتمع السعودي نموذجاً]

إعداد:
د. عادل الشدي

صفحة أبيض

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على خيرته من خلقه ومن لا نبي بعده أما بعد .

يتناول المحور الأول من مؤتمر (الأمة الإسلامية في مواجهة التحديات) التحديات التي تواجه الأمة ومنها: التحديات الثقافية، ومن أبرز التحديات الثقافية المعاصرة: اختلال الأمن الفكري للمجتمعات الإسلامية، ولا يمكن مواجهة هذا التحدي إلا بالكشف عنه كتحدٍ متجددٍ يواجه الأمة وقد جاء ضمن أهداف المؤتمر (الكشف عن التحديات المتجددة التي تواجه الأمة) مع إبراز وسائل صيانة الأمن الفكري وحمايته .

ولأن بحث هذا الموضوع على امتداد المجتمعات الإسلامية المختلفة يحتاج إلى جهد كبير جداً لاختلاف درجة الإخلال بالأمن الفكري في كل مجتمع عن المجتمع الآخر، ولاختلاف العوامل التي أدت إليه، فقد اختار الباحث المجتمع السعودي نموذجاً لأسباب منها:

١- أن المملكة العربية السعودية هي قبلة المسلمين وقلب العالم الإسلامي النابض فكل ما يؤثر على أمنها الفكري يؤثر بالضرورة على بقية مجتمعات المسلمين

٢- أن هذا المؤتمر يعقد على أرض المملكة العربية السعودية وتحديداً على أطهر بقعة فيها (مكة المكرمة)، ومن هنا فليس غريباً أن يدرس المؤتمرون على أرضها ما يواجهه أمنها الفكري من تحديات.

٣- المجتمع السعودي كان من أكثر المجتمعات محافظة على الأمن الفكري إلا أن بوادر الاختلال قد بدأت تظهر عليه مؤخراً، ولا بد من بحث هذه الظاهرة وتحليل أسبابها وبيان علاجها.

٤- الاستفادة من وجود كوكبة متميزة من علماء الأمة ومفكريها في هذا المؤتمر حيث إن خبراتهم وتجاربهم ستكون مفيدة بإذن الله في صيانة الأمن الفكري لمجتمع عزيز من مجتمعات المسلمين.

٥- إن المملكة العربية السعودية هي حصن الإسلام الأخير ومأرز الإيمان، ونجاح الأعداء في اختراق أمنها الفكري خسارة كبرى للمسلمين عموماً، لدورها الرائد في دعم كل نشاط يخدم الإسلام والمسلمين مادياً ومعنوياً.

مدخل:

أبدأ هذه الورقة بسؤال في غاية الأهمية:

هل يمكن أن يتحقق الأمن المحسوس لمجتمع ما دون وجود أمن فكري يستظل أفرادُه بظلاله ويكون سبباً رئيساً لحلول الأمن بمعناه الشامل؟
الجواب بالنفي طبعاً ومن هنا فإن من أبرز المعوقات التي تحد من الدور الأمني الشامل لمؤسسات المجتمع المختلفة عدم الاهتمام الكافي بحماية الأمن الفكري.

ولقد أثبتت أحداث التفجير في مدينة الرياض وما صاحبها من تعقب ومطاردة أن البعض وإن كانوا قلة يسعون إلى الإخلال المحسوس بأمن المجتمع وإشاعة الفوضى والاضطراب بين أفرادهم وسلبهم هذه النعمة التي ظلوا يرفلون فيها عقوداً متوالية.

وفي حقيقة الأمر فإن الأمن كلُّ لا يتجزأ وقد سبق أن محاولة الإخلال بالأمن الحسي إخلال بالأمن الفكري للمجتمع ومع ذلك فإن الجهود المبذولة لحمايته لا تزال أقل من الدرجة المقبولة بل وتتضاءل عند البعض إلى درجة الصفر أحياناً مع أننا في أمس الحاجة إلى الأمن الفكري الذي جاء الإسلام ليحفظه على المسلمين فإن الدين قول وعمل واعتقاد، والاعتقاد محله القلب والفكر ومن هذا المنطلق جاءت الورقة لتناقش أربعة محاور، وتجييب عن أربعة أسئلة.

أولها: ما هو التأسيس الشرعي للأمن الفكري؟

الثاني: ما هو دور الدولة السعودية في حماية الأمن الفكري؟

الثالث: ماذا عن الواقع الراهن للأمن الفكري في بلادنا وهل هو على ما يرام؟

الرابع: ما هي وسائل حماية أمننا الفكري؟

سائلاً الله التوفيق والإعانة وأن يرزقنا جميعاً الإخلاص في القول والعمل .

المحور الأول: التأسيس الشرعي للأمن الفكري في الإسلام

جاء الإسلام ليحفظ على الناس ضرورات خمس هي مقاصد الشريعة، أولها وأهمها: ضرورة الدين فكل اعتداء على الدين قولاً أو فعلاً فإن الشريعة الإسلامية تحرّمه وتمنع منه، ويشمل ذلك الاعتداء على عقائد الناس ومحاولة تغييرها والإخلال بأمنهم الفكري والسعي في انحراف الفكر ولا سيما عند الشباب، ويستطيع الباحث أن يلاحظ صيانة الإسلام للأمن الفكري على مستويين:

أولهما: داخل المجتمع المسلم:

ومما يؤكد ذلك:

١- توحيد مصدر التلقي في العقائد والعبادات والقضايا الكبرى في حياة المسلمين: ومن شواهد ذلك غضب النبي (حين رأى مع عمر بن الخطاب قطعة من التوراة، وقوله له «أوفي شك أنت يا ابن الخطاب، والله لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي»^(١)).

٢- النهي عن الابتداع في الدين: لأن الأمن الفكري يضطرب إذا انتشرت البدع التي مردّها إلى استحسان العقول لا اتباع النصوص، ومن هنا

(١) (١) رواه أحمد في المسند، (١٤٢٢٠) مسند جابر بن عبد الله رضي الله عنه، والدارامي في المقدمة باب: ما يتقى من تفسير حديث النبي ﷺ، رقم (٤٣٥).

فإن بدعة الخوارج في التكفير بالمعاصي^(١) تناقض بدعة المرجئة في اعتبار صاحب الكبير كامل الإيمان^(٢) وكلا طرفي قصد الأمور ذميم، وقد قال ﷺ «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»^(٣)، وقال ﷺ «إياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة.... الحديث»^(٤).

٣- تحريم الإفتاء بغير علم: فالفتوى توقيع من المفتي بالحكم الشرعي في قضية ما، وتوسيع دائرة الفتيا لتشمل من لم يتأهل لها يوقع المجتمع في الفوضى الفكرية في مواجهة سيل الفتاوى، فليس كل من فُتح عليه في باب الخطابة أو الوعظ أو التربية أو الزهد مؤهلاً للإفتاء، ولا سيما في النوازل وتدافع الصحابة للفتيا معروف^(٥) مع علمهم وتأهلهم فكيف بمن يقول على الله بغير علم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وتحريم الحلال على الناس مثل تحليل الحرام لهم إن لم يكن أشد عند الله^(٦) قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أُذُنٌ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

ثانياً: في العلاقة مع الآخر من غير المسلمين:

حيث رسم الإسلام دائرتين لصيانة الأمن الفكري إحداهما أكثر ضيقاً من الأخرى، تختص الأولى بالعلاقة مع المشركين فلا التقاء حينئذ في مجال

(١) انظر الفتاوى، ٢٧٩/٣، ٤٨١/٧، ٤٨٣، ٤٨٤، ورسائل ودراسات في الأهواء والافتراق والبدع د/ ناصر العقل ٢٦/٢ وما بعدها.

(٢) انظر حلية الأولياء ٢٩/٧، وانظر ذلك مفصلاً في كتاب القدرية والمرجئة للدكتور ناصر العقل ٧٧/٥ وما بعدها.

(٣) رواه البخاري، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على جور فالصلح مردود، رقم (٢٦٩٧)، ط. دار السلام - الرياض، ومسلم كتاب الأفضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور ط. الأرقم ٤١٩ هـ.

(٤) رواه الترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة، واجتنب البدعة، رقم (٢٦٧٦)، طبعة بيت الأفكار الدولية، وأبو داود، كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم (٤٦٠٧) طبعة بيت الأفكار الدولية، وابن ماجه، في المقدمة، باب اجتماع البدع والجدل، رقم (٤٦) طبعة الأفكار الدولية.

(٥) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية ٢٣/١، راجعه وقدم له طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت.

(٦) انظر في ذلك على سبيل المثال: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٦٢/٢، دار الخير، الطبعة الثانية، ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م، وتفسير المنار ٤٠٨/١١ لرشيد رضا، دار الفكر والتحرير والتوزيع للطاهر ابن عاشور ٢٠٨/١١، ٢٠٩، ٣١٢/١٤، الدار التونسية للنشر.

الثقافة والفكر كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون].

والثانية وهي الأكثر اتساعاً تختص بالعلاقة مع أهل الكتاب، وتتمثل في الدعوة إلى الالتقاء على قاسم مشترك يجمع المسلمين بهم يتمثل في توحيد الخالق وعبادته وحده وقد بينه الله تعالى في قوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ويغفل البعض عن كون المعاملات الاجتماعية العادية خارج هذه الدائرة فقد أباح الله للمسلم الزواج بالكتابية فقال: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة: ٥] وأكل ذبائح أهل الكتاب فقال: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَّ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٥]، وقد توفى رسول الله (ودرعه مرهونة عند يهودي في طعام اشتراه منه^(١)) وقد عاد (غلاماً يهودياً كان يخدمه)^(٢) وهذا تطبيق نبوي لأصول العلاقة مع الآخر (اليهودي والنصراني) في ضوء قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

المحور الثاني: جهود المملكة في حماية الأمن الفكري

الناظر في التجربة السعودية من بدايتها وحتى أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م يلحظ التميز المبهر في صيانة الأمن الفكري داخل المجتمع السعودي وبغض النظر عن اختلاف البعض من خارج هذا المجتمع مع الفكر الذي صانته هذه البلاد فإن الجميع يكاد يتفق على نجاحها في صيانتها ورعايته.

(١) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب شراء الإمام الحوائج بنفسه، رقم (٢٠٩٦).
(٢) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، رقم (١٣٥٦).

والسؤال هو: لماذا نتحدث الآن عن تميز بلادنا في هذا المجال خصوصاً وأن البعض يرى ذلك نوعاً من مدح الذات وإطراء النفس وهو الأمر الممجوج الذي بالكاد بدأنا نتخلص منه في صحافتنا وإعلامنا، الجواب أننا نتحدث عن تميز المملكة بصيانة الأمن الفكري لأسباب منها:

أولاً: إحداث التوازن في التقييم فقد هبت عاصفة النقد الذاتي الذي يصل أحياناً إلى حد جلد الذات وإلى خلط القضايا واعتبار المحاسن عيوباً في وسائل الإعلام المرئية والمقروءة والمسموعة دون النظر إلى الإيجابيات جنباً إلى جنب مع السلبيات والأخطاء.

ثانياً: لتعزيز الجوانب الإيجابية والثبات عليها وقد أثبتت الدراسات الحديثة أهمية جانب التعزيز في تثبيت الصفات المرغوبة والخصال الإيجابية.

ثالثاً: نتحدث عن تميزنا في مجال رعاية الأمن الفكري، لأنه نعمة من نعم الله فمن شكر النعمة التحدث بها قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] وقال ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] ولقد تمت رعاية هذا الأمن الفكري من خلال عدة وسائل بعد توفيق الله عز وجل من أهمها:

١- مناهج التعليم: الحافلة بما يربي الطالب على التوازن والوسطية واتباع الدليل وترك الافتراق والأهواء والبدع المحدثه، وقد صانت هذه المناهج - وطيلة عقود متوالية - أفكار أبناء المجتمع السعودي عن الغلو والجفاء حتى ظهرت مؤخراً قلة نادرة تأثرت بعوامل ليست مناهج التعليم من ضمنها فانحرفت عن الجادة وسلكت سبيل الغلو والإفراط .

٢- توحيد المرجعية الدينية في الفتوى: ولا سيما في النوازل الكبار فالرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والتي يرأسها المفتي العام للبلاد تنظر في القضايا والنوازل وتفتي الناس فيها وتتحقق من تأهيل من يتصدرون للإفتاء في أمور الناس المختلفة، كما أن وجود هيئة كبار العلماء

وقيامها بدورها الحقيقي كان صمام أمان للأمن الفكري، وقد لاحظ الجميع في السابق كيف كان توحيد المرجعية الدينية سبباً - بإذن الله - في حماية الأمن الفكري للمجتمع أمام أحداث خطيرة مرت بها البلاد، ومنها فتنة احتلال الحرم عام ١٤٠٠هـ واحتلال الكويت عام ١٤١٠هـ وما تبعها من مجيء القوات الأجنبية إلى بلاد المسلمين.

٣- وجود المفاخر الثلاث في السعودية: وهي ليست مبانٍ شاهقة بل معانٍ ناطقة غير موجودة في أي بلد من بلدان المسلمين اليوم وأعني بها:

- القضاء الشرعي الذي يشرف عليه مجلس القضاء الأعلى ويتحاكم إليه الناس في أمور الدماء والأعراض والأموال.

- والرئاسة العامة لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي المعبرة عن الجانب العملي في مجال الأمن الفكري في المجتمع بل إن وجودها يعني بالضرورة تهافت حجة من يريد تغيير ما يظنه منكراً بنفسه ؛ لأن هذا الجهاز قائم بدوره وهو القناة الشرعية التي يمر تغيير المنكر من خلالها.

- والمفخرة الثالثة تتمثل في مكاتب الدعوة والإرشاد وتوعية الجاليات المنتشرة في طول البلاد وعرضها تدعو غير المسلمين إلى الإسلام بالحسنى، وترشد المسلمين إلى زيادة التمسك بدينهم عبر برامج متوازنة يتم الإشراف عليها من قبل وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ووجود هذه المكاتب الدعوية يقطع حجة من يريد التصدي للدعوة بغير علم ولا بصيرة.

ولقد أسهمت هذه المفاخر مجتمعة مع بقية العوامل السابقة في رعاية الأمن الفكري وقلة تأثر السعودية بالتيارات الفكرية المنحرفة والتناغم الواضح بين معظم شرائح المجتمع في حين كانت الكثير من البلاد العربية والإسلامية الرئيسية تعاني من هذه التيارات ويمكن اعتبار (مصر والجزائر والباكستان ولبنان) نموذجاً في هذا الصدد.

المحور الثالث: نظرة إلى الواقع الراهن للأمن الفكري في بلادنا

كان حديثنا في المحور السابق عن تميز التجربة السعودية فيما مضى بحماية الأمن الفكري وصيانتها، ولكن الزمن اليوم تغير كثيراً عن ذي قبل مما جعل الأمن الفكري مهدداً بل وبعبارة أشد صراحة وإيلاماً مخترقاً لأسباب متعددة منها:

١- ترك المرجعية الدينية في مجال الفتوى: فأصبحت نسبة لا يستهان بها من الشباب عازفة عن مشائخ البلاد الكبار زاهدة فيما عندهم ووجدت أو أوجدت فجوة بينهم وبين علمائهم في مخالفة مؤذنة بالخطر لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهٖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، ومع تسليمتنا بوجود الفجوات بين الأجيال وبكون الفئة العمرية الأقل من ٢٥ سنة تزيد عن ٦٠٪ من أفراد المجتمع السعودي إلا أن هذا يفسر ولا يبرر ما يحصل الآن من فجوة خطيرة بين العلماء والشباب مما يدفعنا إلى توجيه النداء الجاد لعلمائنا الكبار بزيادة فتح عقولهم وقلوبهم لهؤلاء الشباب والنزول إلى مستوى إدراكهم وواقعهم واتباع سياسة الأبواب المفتوحة في مواعيد ثابتة ومعروفة للالتقاء بالشباب وغيرهم.

٢- طوفان البث الفضائي المرئي والمسموع وظهور شبكة الإنترنت: بما فيها من السلبيات والإيجابيات مما جعل مصادر التلقي في مجال الفكر والتربية متعددة ومتنوعة ولم تعد محصورة في المدرسة والمسجد والأسرة، وقد حمل هذا الطوفان غثاً كثيراً وثنميناً قليلاً، إضافة إلى تسويق الانحرافات السلوكية والأخلاقية التي جعلت تيار الوسط يفقد كثيراً من سالكيه لصالح تيار الجفاء والتفريط في ثوابت الفكر والخلق في أكثر الأحيان أو تيار الغلو والإفراط في أحيان أقل لكنها أخطر كردة فعل خاطئة لما يشاهده عبر هذه الوسائل، ولصغر السن والعجز عن تحمل المفارقة بين ما يراه في الواقع وبين المثل التي يتعلمها.

٣- محاولة البعض تغيير الخطاب الديني: فبعد أن كان التوازن هو سمته الظاهرة سعى البعض إلى تغليب جانب الشحن العاطفي على حساب الجانب العلمي العقلي من الخطاب الديني وتم التركيز على أفضل ما في الماضي وأسوأ ما في الحاضر مما أشاع جواً من اليأس والإحباط والرغبة في إحداث التغيير بطرق بائسة يائسة، وفي هذا السياق نفهم لماذا تم التركيز على تفرق المسلمين واختلافهم واحتلال أجزاء مهمة من أراضيهم والفساد الأخلاقي والاستبداد السياسي في معظم بلاد المسلمين اليوم مع استدعاء صورة تاريخية تمثل أفضل ما في الماضي الذي تلا عصر الخلفاء الراشدين من حيث وحدة المسلمين واجتماع كلمتهم وهيبتهم بين الأمم وريادتهم في المجالات المختلفة واتساع رقعة الفتوحات الإسلامية.

ولو تم عكس الصورة بالتركيز على أسوأ ما في الماضي وأعني به ما بعد عصر الخلفاء الراشدين وأفضل ما في الحاضر، لحصل العكس حين تلقي الضوء على الاستبداد السياسي لدى كثير من خلفاء بني أمية وبني العباس وبني عثمان وقمع المعارضين مهما كانت مكانتهم الدينية والاجتماعية (قتل الحسين^(١) وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما نموذجاً)^(٢) وعدم اعتبار مكانة العلماء بل وإهانتهم (محنة الإمام أحمد بن حنبل^(٣) وموت ابن تيمية^(٤) في السجن نموذجاً) واستئثار الخلفاء ببيت مال المسلمين، إلى غير ذلك مما يعتبر من المعالم السيئة للتاريخ الإسلامي وبإزاء ذلك يتم استدعاء بعض الصور المشرفة من الحاضر كقيام دولة تحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ في الجملة وتتحاكم إلى الشريعة الإسلامية في الدماء والأموال والأعراض وخدمة القرآن ونشره وترجمات معانيه بشكل لم يسبق له مثيل

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير ١٧٤/٨، تحقيق مجموعة من العلماء، دار الكتب العلمية - بيروت.
(٢) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير، ٢١/٤، وما بعدها، عني بمراجعته نخبة من العلماء، دار الكتاب العربي.
(٣) انظر الطبقات لابن أبي يعلى (١٧٦.١٧٣/١).
(٤) انظر الأعلام العلمية في مناقب ابن تيمية للبخاري ص ١٦، تحقيق زهير الشاويش، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت ١٣٩٤هـ.

في تاريخ المسلمين^(١)، وتوسعة الحرمين الشريفين وخدمتهما وتسهيل الوصول إليهما بما لم يحصل قبل ذلك في تاريخ الخلفاء^(٢)، ونشر العلم الشرعي عبر المدارس والجامعات في الداخل والمعاهد والمكتبات في الخارج ودعم المسلمين بالمنح والهبات الهادفة إلى تحسين أوضاعهم وسد حاجتهم، ترى كيف سيكون وضع كثير من الشباب حين يتلقون خطابهم الديني بهذا الشكل المعاكس للخطاب الديني المركز على أسوء ما في الحاضر وأفضل ما في الماضي، والمطلوب هو التوازن وعدم الاندفاع خلف العواطف والشحن المؤذن بالانفجار.

٤- عدم رد المتنازع فيه إلى الثوابت الدينية المتفق عليها: وهذا الخلل الفكري أدى إلى اختلاف الرؤى والتوجهات سواء من قبل أهل الغلو والإفراط أو من قبل أهل الجفاء عن الدين والتفريط فيه؛ لأن كل واحد من الطرفين احتكم إلى عقله وهواه وما يراه صواباً دون رجوع إلى الثوابت وهي نصوص الكتاب والسنة على وفق فهم السلف الصالح وقد قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠] وقال: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] وقال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

المحور الرابع: وسائل حماية الأمن الفكري

مع أن التشخيص لأسباب الإخلال بالأمن الفكري كان ميسوراً لوضوحه إلا أن وصف العلاج أشد صعوبة في هذه الظروف التي وصل فيها الخلل إلى درجة الاختراق الفكري كما أسلفت، ومع ذلك فإن وسائل حماية الأمن الفكري منها ما هو وقائي - وهو الأنفع ومنها ما هو علاجي وهو ضروري، ذلك أن العيش في مجتمع مزدحم يختلط أفراداه وفيهم الصحيح والسقيم

(١) انظر عقدان من العطاء في خدمة الإسلام والمسلمين، ص ٣٧، المملكة العربية الإسلامية، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، وكتاب جهود خادم الحرمين الشريفين في طباعة المصحف الشريف ونشره ص ٣٥ للباحث.

(٢) انظر في ذلك على سبيل المثال كتاب وزارة الحج في عام ١٤٢٠هـ، ص ٨٩ - ١١٢.

مظنة لانتشار بعض الأمراض فيه بفعل العدوى فيما أن ننتظر حتى تظهر الأعراض على البعض فتبادر بعلاجهم، وإما أن نسعى إلى الوقاية بأخذ الجميع جرعة من اللقاح الواقي من المرض بإذن الله، واللقاح الفكري أولى وأكبر تأثيراً.

أولاً: من الوسائل الوقائية لحماية الأمن الفكري:

١- إظهار وسطية الإسلام واعتداله وتوازنه: وترسيخ الانتماء لدى الشباب لهذا الدين الوسط وإشعارهم بالاعتزاز بهذه الوسطية ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وهذا يعني الثبات على المنهج الحق وعدم التحول عنه يمناً أو يسرة وعدم نصره طرف الغلو والإفراط أو طرف الجفاء والتفريط في صراعهما المستمر.

٢- معرفة الأفكار المنحرفة وتحصين الشباب ضدها: فلا بد من تعريفهم بهذه الأفكار وأخطائها قبل وصولها إليهم منمقة مزخرفة فيتأثرون بها؛ لأن الفكر الهدام ينتقل بسرعة كبيرة جداً ولا مجال لحجبه عن الناس ولقد كان الناس يسألون رسول الله (عن الخير لكن حذيفة بن اليمان كان يسأله عن الشر مخافة أن يدركه)^(١) وهو منهج قرآني دل عليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَفَصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥] فاستبانة سبيل المجرمين لاجتنابها كان سبباً لتفصيل الآيات حولهم^(٢)، كما أن فضح المنافقين في القرآن وخصوصاً في سورة التوبة وكشف طريقة تفكيرهم كان من أهدافه تحذير المسلمين عن سلوك مسالكهم^(٣).

(١) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٦٠٦)، ومسلم، وكتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، رقم (١٨٤٧).

(٢) انظر تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ١٤٤/٤ وما بعدها، تحقيق وتعليق الشيخ عادل عبد الموجود، والشيخ علي معوض، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

(٣) انظر تفسير القرآن للسمعاني ٣١٥/٢، وما بعدها، تحقيق أبي تميم ياسر بن إبراهيم، وأبي بلال غنيم بن عباس، دار الوطن، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، وراجع هذه القضية مفصلة في كتاب دراسة قرآنية في النفاق، وأثره في حياة الأمة، للباحث ص ٣٠٥ وما بعدها، دار الوطن - الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.

والغالب أن القلب والفكر محل لمن سبق إليه، ومن هنا فأهمية السبق بالبيان كبيرة في الوقاية من الفكر المنحرف بإذن الله ومثال ذلك أفكار أهل التكفير التي قادت إلى التفجير لو تم مناقشتها بوضوح في بداياتها لما راجت على كثير من الشباب الذين تأثروا بها فيما بعد وكتاب المقدسي المسمى (الكواشف الجليلة) الذي يكفر فيه الدولة السعودية صدر قبل سنوات عديدة بل وتأثر به من فجروا في العليا بالرياض في عام ١٤١٥هـ كما جاء في اعترافاتهم التي بثها التلفزيون السعودي آنذاك، ومع ذلك لم تتم مناقشة الشبهات المثارة ودحضها بالدليل الشرعي في ذلك الحين مع أنها شبهات لا تصمد أمام النقد العلمي المدعم بالدليل الواضح من الكتاب والسنة على وفق نهج السلف الصالح رحمهم الله تعالى^(١).

٣- إتاحة الفرصة الكاملة للحوار الحر الرشيد داخل المجتمع الواحد: وتقويم الاعوجاج الفكري بالحجة والإقناع؛ لأن البديل هو تداول هذه الأفكار بطريقة سرية غير موجهة ولا رشيدة مما يؤدي في النهاية إلى الإخلال بأمن المجتمع كما حدث، ومن تطبيقات هذه القاعدة في السنة النبوية قول بعض حدثاء العهد بالإسلام لرسول الله ﷺ: (اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط)^(٢) والمقصود طلب تخصيص شجرة يتبرك بها المسلمون ويعتقدون فيها ما لا يحل اعتقاده في مخلوق^(٣)، وعلى الرغم من مصادمة هذا الطلب لثوابت المعتقد فإن البيئة الصحية التي كان المسلمون يعيشون فيها جعلت هذا الانحراف الفكري يظهر للسطح فوراً وتتم مناقشته في العلن مع القيادة العلمية والسياسية للأمة المتمثلة في النبي ﷺ: ومن تطبيقات هذه القاعدة

(١) على حد علم الباحث لم تصدر أي ردود علمية موثقة تناقش هذا الكتاب وما أثير فيه من شبهات هي العمدة عند أهل التكفير والتفجير، ومنها ما يتعلق بالتوقيع على ميثاق الأمم المتحدة والتترس على وفق مفهومهم، وغير ذلك مما لا يتسع المقام للتفصيل فيه.

(٢) رواه الترمذي: كتاب الفتن باب ما جاء لتركن سنن ما كان قبلكم رقم (٢١٨٠).

(٣) انظر كتاب التوحيد، للشيخ محمد بن عبد الوهاب، ص ٤٢، ٤٣، وفتح المجيد شرح كتاب التوحيد للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ص ١٤٩، والقول السديد شرح كتاب التوحيد لفضيلة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ص ٤٤، دار الوطن الطبعة الثانية ١٤٢١هـ.

في السنة النبوية قول أحد الشباب لرسول الله ﷺ (أئذن لي في الزنا)^(١) فهو يعرف تحريمه وبشاعته ومع ذلك يطلبه من أتقى الأمة وأنقاها؛ لأن مجال الحوار الحر كان مفتوحاً معه ﷺ دون خوف أو وجل فتمت معالجة هذا الانحراف الفكري في مهده، ومن تطبيقاتها في عهد الخلفاء الراشدين بعث علي بن أبي طالب عبد الله بن عباس لمناقشة الخوارج في حروراء ومحاورتهم بعد خروجهم^(٢) وكان من نتيجة هذا الحوار رجوع الثلثين عن بدعتهم قبل المواجهة العسكرية معهم.

٤- الاهتمام بالتربية: في المدارس والمساجد والبيوت، وكم يؤلم أن نرى ونسمع هذا الانفصال الشعوري بين الآباء والأبناء، وبين المعلمين والطلاب، وبين الخطباء والمصلين في كثير من الأحيان؛ بل إن معظم المشاركين في أحداث التفجيرات الأخيرة انفصلوا عن أهلهم وخرجوا من بيوتهم منذ مدة طويلة، والمربي الناجح لا يترك مثل هذه الأحداث تمر دون تعليق ولفترات تربوية تناسب المقام، ومن العجيب أن ستة فقط من بين أربعين معلماً حضروا اجتماعاً تربوياً بعد تفجير الرابع عشر من رمضان تحدثوا مع طلابهم عن التفجيرات ودوافعها وآثارها^(٣) بل وأذكر أنني اقترحت قبل أكثر من ثمانية أشهر على وزارة التربية والتعليم توزيع بيان هيئة كبار العلماء حول التفجيرات على طلاب الصف الثالث الثانوي وهم الشريحة الأكثر استهدافاً من أصحاب فكر الغلو والتكفير لبيان الحكم الشرعي وتقوية ارتباطهم بالعلماء وقطع الطريق على من يسعى للتأثير عليهم، ومع ذلك لم يتم حتى مجرد الرد على هذا الطلب.

٥- الدعاء: وهو سلاح عظيم له أثر كبير في حلول الأمن الفكري وقد أهمله كثير من الناس فلا تكاد الأيدي ترتفع سائلة الله الهداية إلى الصواب مع أن النبي ﷺ وهو المؤيد المسدد بالوحي كان يقول في دعائه: (اللهم فاطر

(١) رواه الإمام أحمد: في مسنده رقم (٢١٧٠٨).

(٢) رسائل ودراسات في الأهواء والافتراق والبدع د. ناصر العقل ٤٤/٢.

(٣) انظر جريدة الرياض الصادرة بتاريخ ١٧/٣/٢٤هـ صفحة حروف وأفكار.

السموات والأرض عالم الغيب والشهادة اهتدي لما اختلف فيه من الحق بإذنك^(١) بل إن المسلم لا يكاد يكرر دعاء ولا كلاماً في حياته كتكراره لكلمة ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] التي هي جزء من الفاتحة وقراءتها ركن في كل صلاة بل في كل ركعة بما يزيد عن ستة آلاف مرة في العام الواحد فالقلوب كما في الحديث الصحيح: (بين أصبعين من أصابع الرحمن يقبلها كيف يشاء)^(٢).

ثانياً: من الوسائل العلاجية لحماية الأمن الفكري:

الواقع العملي أن البعض قد وقعوا في هذا المرض (الانحراف الفكري) ولم تجد محاولة الوقاية شيئاً في دفعه عنهم، ومن هنا وجب على المجتمع السعي في علاجهم قبل فوات الأوان ومن وسائل العلاج:

١- دعوة المخطيء إلى الرجوع عن خطئه: وبيان الحق بالمناقشة العلمية الهادئة دون اتهام للنيات فقد تكون صادقة، ولكن هذا لا يغني عن صاحبها شيئاً كما قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۖ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٢﴾ تَصَلَّىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾ [الغاشية].

٢- تجنب الأساليب غير المجدية: فالمصاب بهذا المرض لا يعالج بالتركيز على الوعظ والتخويف من عقاب الله فهذا الأسلوب في الغالب لا يجدي معهم لأن أمثال هؤلاء يرون أنهم على صواب ودين فكيف تعظ إنساناً يظن أنه على الدين الحق قبل أن تبين له خطأه الفكري فيما يراه حقاً، ولا يعالج المصاب بهذا المرض بالتركيز على التهديد والوعيد ؛ لأن أمثال هؤلاء يرون أنهم يتقربون إلى الله بما يصيبهم من الأذى والنكال ؛ بل رأينا من يُقدم على ما يضره عالماً بذلك بزعم طلب الأجر من الله فهذا التهديد والوعيد لا يزيده إلا إقداماً فمثل هذه الأساليب تستنزف الكثير من الجهد والوقت وقد تكون ثمرتها محدودة في العلاج.

(١) رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه رقم (٧٧٠).

(٢) رواه مسلم : كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء، رقم (٢٦٥٤) .

٣- وجوب الأخذ على أيديهم: ومنعهم من الإخلال بالأمن الفكري للمجتمع ولو أدى ذلك إلى إجبارهم على عدم مخالطة الآخرين لاتقاء شرهم، وقد ضرب النبي (مثلاً بليغاً لمثل هذه الحالة فقال: (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً) (٤٤).

٤- النهي عن مجالسة أهل الانحراف الفكري: الذين يريدون خرق سفينة المجتمع وإغراق أهلها بخوضهم في آيات الله وتجراهم على الفتيا بغير علم وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨].

٥- ضرورة التفريق بين الانحراف الفكري الذي لم يترتب عليه فعل وبين من أخل بفعله بالأمن في مجتمعه: فمن ظهر منه عمل تخريبي وثبت عليه شرعاً فيجب محاسبته على ما بدر منه كائناً من كان وعقابه بما يستحقه شرعاً حتى ولو كان ظاهره الصلاح والاستقامة فيما يرى الناس شأنه في ذلك شأن من كان ظاهره الصلاح لكنه وقع في السرقة والزنا أو القذف على سبيل المثال، فإن ما ظهر للناس من صلاحه واستقامته لا يشفع له ويسقط المحاسبة عنه لكن العبرة هنا بالثبوت الشرعي المعتبر لجرمه التخريبي، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(١) رواه البخاري: كتاب الشركة باب هل يقرع في القسمة والاستهام، رقم (٢٤٣٩).

أبيض